مِحوريّةُ الظُّلمِ في سُنَنِ هَلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم

◆ إياد محمد علي الأرناؤوطي[1]

■ خلاصة

في هذه الدِّراسةِ مُحاولةٌ للكشفِ عن مِحوريّةِ الظُّلمِ، وكونِه مِحورًا لسُننِ هلاكِ الأمَمِ ونُزولِ العَذابِ بها في القرآنِ الكريمِ.

وقد توصَّلَت الدِّراسةُ إلى أنَّ هلاكَ القُرى والأمَمِ مُرتَبطٌ بتَلبُّسِها وتَورُّطِها في الظُّلمِ، وأنَّ هذا الهلاكَ يأتي بعدَ الإنذارِ، وتَقديمِ كلِّ وسائلِ الصَّلاحِ والهدايةِ والإمهالِ. وهذا الهلاكُ لا يأتي بطريقةٍ عَشوائيّةٍ، وإنَّما وَفقَ سُننٍ دَقيقةٍ؛ بحيثُ لا يُظلَمُ أحدٌ من الهالكينَ أو الذين نزلَ بهم العِقابُ. كما أنَّ هذا الهلاكَ يَحملُ في طيّاتِه العِبرةَ للأقوامِ اللّاحقةِ، ويُمكِنُ أن يكونَ سَببًا في هدايتِها وصَلاحِها وبُعدِها عن الظُّلمِ.

الكلمات المفتاحية: القرآن - الظُّلم - القُرى - الأمم - الإنسان - السُّنن.

١ - متخصص بلغة القرآن الكريم، أستاذ دكتور في جامعة بغداد.

المُقدِّمة

يَسعى هذا البحثُ إلى الإجابةِ عن سؤال: هل يُكوِّنُ الظُّلمُ محورًا لسُننِ هلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم؟ وحدودُهُ هي القرآنُ الكريم من أوَّلِه إلى آخرِه، وقد وفَّقَني اللهُ -تعالى- لتتبُّعِ الموضوعِ من سورةِ الفاتحةِ حتّى النّاسِ، لاستجلائِه.

يتألَّفُ البحثُ من مُقدِّمة، وأربعةِ مَحاورَ، الأوَّلُ: تَعريفٌ بمُفرداتِ العُنوان، والثاني: الظُّلمُ في القرآن الكريم، والثّالثُ: الهَلاكُ في القرآن الكريم، والرّابعُ: سُنَنُ هلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم. وقد تضمَّنَ كلُّ محورٍ مَطالبَ فَرعيّةً، بحسبِ ما يَقتضيه المَنهجُ العِلميُّ، وخُتم بخاتمةٍ تضمَّنَت أهمَّ نتائجِ البَحث.

أولا: تعريفٌ بمُفرداتِ العنوان

١. الظُّلم

ممّا قالَه (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) في مادة (ظ ل م): «والظُّلْمُ عند أهلِ اللُّغةِ، وكثيرٍ من العُلماء: وَضعُ الشَّيءِ في غير مَوضعِه المُختصِّ به، إمّا بنُقصان، أو بزيادة، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِه أو مَكانه، ومن هذا يُقال: ظَلَمْتُ السِّقاءَ: إذا تناولتَه في غيرِ وَقتِه، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبنُ الظَّليمَ. وظَلَمْتُ الأرضَ: حَفَرتُها، ولم تكنْ مَوضِعًا للحَفرِ، وتلكَ الأرضُ يُقال لها: المَظلُومةُ، والتُّرابُ الذي يُخرَجُ منها: ظَليمٌ.

والظُّلمُ يُقال في مُجاوزةِ الحَقِّ، الذي يَجري مَجرى نقطةِ الدّائرةِ، ويُقالُ فيما يَكثرُ، وفيما يَقِلُّ،

من التَّجاوُزِ، ولهذا يُستعمَلُ في الذَّنبِ الكبيرِ، وفي الذَّنبِ الصَّغيرِ، ولذلك قيلَ لآدمَ في تعدِّيهِ: ظالِمٌ[1]، وفي إبليسَ: ظالمٌ، وإن كان بينَ الظُّلمَينِ بونٌ بَعيد.

قال بعضُ الحُكماءِ: الظُّلمُ ثلاثةٌ:

- **الأوَّلُ:** ظُلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللّهِ تعالى، وأعظَمُه: الكُفرُ، والشِّركُ، والنِّفاقُ، ولذلك قال: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣]. وقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ [الأنعام: ٩٣].

- **والثاني:** ظُلمٌ بينَه وبينَ النّاسِ، وإيّاهُ قَصد بقوله: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى:٤٠]، وبقوله: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ**﴾ [الشورى: ٤٢].

- **والثالثُ:** ظُلمٌ بينَه وبينَ نفسِه، وإيّاهُ قَصد بقوله: ﴿**فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**﴾ [فاطر:٣٢]، وقوله: ﴿**ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ [النمل: ٤٤].

وكلُّ هذهِ الثَّلاثةِ في الحقيقةِ ظُلْمٌ للنَّفسِ، فإنَّ الإنسانَ في أوَّلِ ما يَهمُّ بالظُّلمِ فقد ظَلَمَ نفسَه، فإذا الظَّالمُ أبدًا مُبتدئٌ في الظُّلمِ، ولهذا قال تعالى في غيرِ مَوضعٍ: ﴿**وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل:٣٣]، وقوله: ﴿**ولَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تُنقِصْ»[2].

والتأمُّلُ فيما قالَه (الرّاغبُ) يَقودُنا إلى الآتي:

- **الأوّلُ:** يَقعُ الظُّلمُ حتَّى على غيرِ العُقلاءِ، فقد وقعَ على اللَّبَنِ والأرضِ فيما أوردَه.

- **الثّاني:** قولُ (الرّاغبِ): «والظُّلمُ يُقال في مُجاوَزةِ الحقِّ، الذي يَجري مَجرى نقطةِ الدّائرةِ»، هو أهمُّ ما يَهمُّنا في بَحثِنا هذا، ويَستلزِمُ الوقوفَ على مفهومِ الحقِّ في القرآنِ

١ - وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا يُقال ذلك إلا مع الآية دون الإطلاق.

٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ٥٣٧ ــ ٥٣٨.

الكريم، الذي يكونُ تَجاوُزُه ظُلمًا، لذا سنَقفُ عندَه: أوردَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) أربعةَ مَعانٍ لكلمةِ (حقّ)، الثّالثُ والرّابعُ هما الأقرَبُ للمُرادِ من (الحقِّ) الذي تَجاوزُهُ ظُلمٌ، إذ قال «أصلُ الحقِّ: المُطابَقةُ والمُوافَقةُ... والحقُّ يُقال على أوجهٍ:

- **... الثالثُ:** في الاعتقادِ للشَّيءِ المُطابقِ لما عليه ذلكَ الشَّيءُ في نفسه، كقولنا: اعتقادُ فلانٍ في البعثِ والثَّوابِ والعقابِ والجنّةِ والنّارِ حقٌّ، قال الله تعالى: ﴿**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣].

- **والرّابعُ:** للفعلِ، والقولِ الواقعِ بحسبِ ما يَجب، وبقَدرِ ما يَجب، وفي الوقتِ الذي يَجب، قال الله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ**﴾ [المؤمنون:٧١]، يَصحُّ أن يكونَ المرادُ به اللهَ تعالى، ويَصحُّ أن يُرادَ به الحُكمُ، الذي هو بحسبِ مُقتضى الحكمة. ويُستعمَلُ استعمالَ الواجبِ، واللاّزمِ، والجائزِ، نحو ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[1]

ومن التأمُّلِ في المَعاني التي تتحرَّكُ فيهما المُفردةُ، تتَّضحُ ثلاثةُ أمورٍ:

- **الأوَّلُ:** لا بدَّ من طَرفَينِ: أحدُهما: لَه الحَقُّ، والآخرُ: مُكلَّفٌ عليهِ الحَقُّ، فهما مُتضايفانِ، لا يُعقَلُ أحدُهما من دونِ الآخَرِ.

- **الثّاني:** لا بدَّ من مَرجعيّةٍ للحقِّ، سواء كانَت العَقلَ الحاكمَ بالأدلّةِ، أم جهةً لها حقُّ التَّشريعِ.

وقد أفاضَ (أميرُ المؤمنينَ عليٌّ) عليه السلام في الحديث عن الحقوق في الحياة الإنسانيّة في خطبةٍ له، فقال: «فالحَقُّ أوسَعُ الأشياءِ في التَّواصُفِ، وأضيَقُها في التَّناصُفِ، لا يَجري لأحَدٍ إلاَّ جَرَى عَلَيهِ، ولا يَجري عَلَيهِ إلاَّ جَرَى لَهُ، ولَو كانَ لأحَدٍ أن يَجريَ لَهُ ولا يَجريَ عَلَيهِ، لَكانَ ذلكَ خالصًا لله سُبحانَهُ دُونَ خَلقِهِ، لِقُدرَتِهِ عَلَى عِبادِهِ، ولِعَدلِهِ في كُلِّ ما جَرَت عَلَيهِ صُرُوفُ قَضائِهِ، ولَكِنَّهُ

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى العباد أن يُطيعُوهُ، وجَعَلَ جَزاءَهُم عَلَيه مُضاعَفَةَ الثَّواب تَفضُّلاً منهُ، وتَوسُّعًا بما هُو مِنَ المَزيد أهلُهُ. ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبحانَهُ ـ من حُقُوقِه حُقُوقًا افترَضَها لِبَعضِ النّاسِ عَلَى بَعضٍ، فجَعَلَها تَتَكافأُ في وُجُوهِها، ويُوجِبُ بَعضُها بَعضًا، ولا يُستَوجَبُ بعضُها إلاَّ بِبَعضٍ»[1].

ومن هذه الخطبةِ يتَّضحُ ما يُقرِّرُه (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام في الحقوقِ، وهذا مضمونه:

١. أنَّ الحقوقَ مَجعولةٌ من الله تعالى، فلَه وحدَه حقُّ تَشريعِها في الإسلام.

٢. تَضايُفُ الحقوق سُنّةٌ إلهيّةٌ مُطَّردةٌ، لا يُستثنى منها مَخلوقٌ، فمَن وجبَ له حقٌّ على أحد، وجبَ عليه حقٌّ تُجاهَه: « لا يَجري لأحَدٍ إلاَّ جَرَى عَلَيه، ولا يَجري عَلَيه إلاَّ جَرَى لَهُ».

٣. لَم يَستثْنِ اللهُ -تعالى- ذاتَه المُقدَّسةَ من هذه السُّنّة المُطَّردة، إذ جعلَ لنفسِه حُقوقًا على خَلقِه، وجعلَ لخَلقِه حُقوقًا عليه، تفضُّلاً منه ورَحمةً.

٤. لو كانَ الحقُّ يَجري لأحدٍ ولا يَجري عليه، لكانَ الأجدَرُ بذلك هو اللهُ تعالى، لسببَينِ:

«الأوَّلُ: أنَّه القادرُ المُطلَقُ، فلا يُعجزُه شيءٌ، فيَستطيعُ أن يَقهَرَ عبادَه على حقوقِه، ويَحملَهم عليها، ولا يُعطِيَهم شيئًا، وأمّا غيرُه فلا يَملِكُ ذلك.

الثّاني: أنَّه لو لم يَجزِهم بأعمالهم، ومعَ ذلكَ كلَّفَهم بها، لكانَ عادلاً، لأنَّ له من النِّعَمِ على العبادِ ما لو عبَدوهُ، مدَى الدَّهرِ، لم يُوفُّوهُ حقَّ نعمةٍ واحدةٍ منها»[2].

٥. جعلَ الله -تعالى- من حقوقِه حُقوقًا لبعضِ النّاسِ على بعضٍ، فهي حقوقٌ مُزدوجةُ الجانبِ، مَن انتهكَها انتهكَ حقَّينِ، أحدُهما للهِ الذي افترضَها، والآخَرُ لمَن فرضَ اللهُ له الحقَّ.

وباتِّضاحِ مفهومِ الحقِّ، يتَّضحُ مَفهومُ الظُّلمِ تمَامًا، الذي هو تَجاوُزٌ للحقِّ، والذي يُمكِنُ تَقسيمُه على قِسمَينِ: ظلمُ الإنسانِ لنفسِه، وظلمُه لغَيرِه، وعلى محورِه يَدورُ بَحثُنا هذا.

١ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ٢١٦، ج٢ ص ١٩٨.
٢ - عباس الموسوي، شرح نهج البلاغة، ج٣ ص ٤٩٧.

٢. السُّنّة

قال (الرّاغبُ الأصفهانيُّ): «السُّنَنُ: جمع سُنَّة... وسُنَّةُ النَّبيِّ: طريقتُه التي كان يَتحرّاها. وسُنَّةُ اللّه تعالى: قد تُقالُ لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**﴾ [الفتح: ٢٣]، ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾ [فاطر: ٤٣]، فتَنبيهٌ أنَّ فروعَ الشَّرائع- وإنْ اختلفَت صُوَرُها- فالغرضُ المَقصودُ منها لا يَختلف ولا يَتبدَّلُ، وهو تَطهيرُ النَّفسِ، وتَرشيحُها للوصولِ إلى ثواب اللّهِ تعالى وجِوارِه»[١].

٣. الهَلاك

جعلَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) (الهَلاكَ) على أربعةِ أوجهٍ:

- **الأوَّلُ:** افتقادُ الشَّيءِ عنكَ، وهو عندَ غيرِكَ مَوجودٌ، كقوله تعالى: ﴿**هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٩].
- **الثّاني:** هَلاكُ الشَّيءِ باستحالةٍ وفَسادٍ، كقوله: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ويُقال: هَلَكَ الطَّعامُ.
- **الثّالثُ:** الموتُ كقوله: ﴿**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ**﴾ [النساء: ١٧٦].
- **الرّابعُ:** بطلانُ الشَّيءِ من العالَمِ، وعدمُه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناءً، المُشارُ إليه بقوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، ويُقال للعذابِ والخوف والفَقر: الهَلاكُ، وعلى هذا قوله: ﴿**وإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ**﴾ [الأنعام:٢٦]، ﴿**وكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ**﴾ [مريم:٧٤]. وقوله: ﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ**﴾ [الأحقاف:٣٥]، هو الهَلاكُ الأكبرُ»[٢].

وما أعنيه بالهَلاكِ في هذه الدِّراسة: هو ما يَعمُّ الموتَ الماديَّ بزَوالِ مَظاهرِ الحَياةِ الماديّةِ، والمَوتَ المَعنويَّ، المُتمثِّلَ بزَوالِ الحياةِ المَعنويّةِ للإنسانِ.

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٢٩.
٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ٨٤٣ ـــ ٨٤٤.

٤. القرية

قال (الرّاغبُ الأصفهانيُّ): «القَريةُ: اسمٌ للمَوضعِ الذي يَجتمعُ فيه النّاسُ، وللنّاسِ جَميعًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما. قال تعالى: ﴿**وسْئَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف: ٨٢]، قال كثيرٌ من المُفسِّرينَ: معناهُ: أهلَ القريةِ. وقيلَ: بل القَريةُ هاهُنا: القومُ أنفسُهم، وعلى هذا قولُه: ﴿**وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى**﴾ [هود: ١١٧]، فإنَّها اسمٌ للمَدينةِ... وقَرَيْتُ الماءَ في الحوضِ، وقَرَيْتُ الضَّيفَ قِرًى، وقَرَى الشَّيءَ في فمِه: جمعَه، وقَرَيانُ الماءِ: مُجتمَعُه»[١]. وذكرَ الإمامُ السبزواري أنَّ "مادة (ق ر ي)، تأتي بمَعنى: الجمعِ، فيَصحُّ إطلاقُها على كلِّ مَجمعٍ إطلاقًا حقيقيًّا، ورُوي أنَّ بعضَ القُضاة دخلَ على عليِّ بنِ الحسين عليه السلام، فقال: "أخبرْني عن قولِ اللّه تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ**﴾ [سبأ:١٨]، ما يَقولُ فيه عُلماؤُكُم؟ قال: يَقولونَ: إنَّها مكّةُ، فقال عليه السلام: وهل رأيتَ سرقَ في موضعٍ أكثر منه بمَكّةَ؟ قال: فما هو؟ قال عليه السلام: إنَّما عَنى الرِّجالَ. قلتُ: فأينَ ذلكَ من كتابِ اللّه؟ فقال عليه السلام: ألم تَسمعْ قولَ اللّه تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ**﴾ [الطلاق:٨]»[٢]. أقولُ: وعلى هذا لا داعيَ إلى تقديرِ الحذفِ، والإضمارِ، الذي عليه الأدباءُ، وتَبعَهم جمعٌ من المُفسِّرينَ، لأنَّه معَ صِحّةِ المَعنى الحَقيقيِّ، لا تَصل النّوبةُ إلى المَجازِ، والحَذفِ.»[٣]

٥. الأمّة

ذكرَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) أنَّ الأُمَّةَ: كلُّ جماعةٍ يَجمعُهُم أمرٌ ما: دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تَسخيرًا، أو اختيارًا[٤]. والذي يَبدو للباحثِ في التَّفريق بينَ الأمّةِ والقَريةِ في التَّعبيرِ القرآنيّ: أنَّ القَريةَ أخصُّ من الأمّة، وقد تكونُ القَريةُ أمّةً، يَجمعُها مكانٌ وزمانٌ ونظامٌ اجتماعيٌّ وإداريٌّ واحدٌ، وقد تتألَّفُ الأمّةُ من قُرًى عَديدةٍ.

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٦٩.
٢ - أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج - ج ٢ – ص. ص ٤٢ -٤٣.
٣ - إياد محمد الأرناؤوطي، المواهب، (ق ر ي)، ج٢، ص١٢٨.
٤ - يُنظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في ألفاظ القرآن، ص ٨٧.

ثانيًا: الظُّلمُ في القرآن الكريم

يَقطعُ (العلاّمةُ الطباطبائيُّ) إنَّ «الظُّلمَ من أشنعِ الذُّنوب، بل التَّحليلُ الدَّقيقُ يَقضي أنَّ سائرَ الذُّنوبِ إنَّما هي شَنيعةٌ مَذمومةٌ بمقدارِ ما فيها من مَعنى الظُّلم، وهو الانحرافُ والخروجُ عن الوسطِ العَدل»[1]. والقسمةُ العَقليّةُ، لدلالةِ هذا الفعلِ، تَقتضي أنَّ هذا المفعولَ لا يَخلو من احتمالَين: أحدُهما: أن يُوقِعَ الإنسانُ الظُّلمَ على نفسِه، والآخَرُ: أن يُوقِعَه على غيرِه؛ وقد يُستعمَلُ مُطلَقًا فيُرادُ به كلاهُما معًا.

١. ظُلم الإنسانِ نفسَه

يُقرِّرُ القرآنُ الكريمُ أنَّه لا بدَّ للإنسان من سبيلٍ يَسلكُه في هذه النَّشأة الدُّنيويّة اختيارًا: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف:٢٩]، فلَه أن يَختارَ أيًّا من السَّبيلَين، وواجبٌ عليه أن يَختار؛ واستنادًا إلى هذا الاختيار، تتحدَّدُ معالمُ حياتِه الأبديّة: سعادةً أو شقاءً. وباختياره طريقَ الشَّقاء، يتحقَّقُ ظُلمُ النَّفسِ، بل بكلِّ تَعَدٍ لحدودِ اللهِ تعالى، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ [الطلاق:١].

وفي حديثٍ لـ(الإمام الباقر) عليه السلام، يَصفُ فيه ما يَحصل للنَّفسِ الإنسانيّة عندَ مُقارَفة الذُّنوب، يقول: «ما من عَبدٍ إلاّ وفي قَلبِه نُكتةٌ بَيضاءُ، فإذا أذنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ في النُّكتة نُكتةٌ سَوداءُ، فإنْ تابَ ذَهَبَ ذلكَ السَّوادُ، وإنْ تمادَى في الذُّنوب، زادَ ذلكَ السَّوادُ حتَّى يُغَطِّي البَياضَ، فإذا غَطَّى البَياضَ لَمْ يَرْجِعْ صاحِبُهُ إلى خَيرٍ أَبَدًا، وهوَ قَولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]»[2].

وقد يَرِدُ ظُلمُ النَّفسِ في القرآن الكريمِ، ولا يُرادُ به هذا المَعنى، من ذلك:

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٤٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكافي، كتاب: الإيمان والكفر، باب: الروح الذي أيد به المؤمن، ج٢ ، ص٢٧٣، حديث: ٢٠.

أ. أوَّلُ ظُلمٍ للنَّفس الإنسانيّة

أوَّلُ ظُلمٍ قصَّهُ علينا القرآنُ الكريم هو قولُه -تعالى- على لسان أبينا (آدمَ) ﷺ، وأمِّنا (حَوّاءَ): ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وهي «كلمةٌ قالاها بعدَما أكَلا من الشَّجرة، التي نَهاهُما اللهُ أن يَقرباها، وإنَّما كانَ نهيَ إرشادٍ ليسَ بالمولوي، ولم يَعصياهُ عِصيانَ تكليف، بل كان ذلك منهما مُخالَفةَ نَصيحة، في رعايتِها صَلاحُ حالهما، وسعادةُ حياتِهما في الجنّةِ الآمنة من كلِّ شَقاءٍ وعَناء، وقد قالَ لَهما ربُّهما في تَحذيره لَهما عن متابعة (إبليسَ): ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٧-١١٩][1].

ب. ظُلمُ الأنبياءِ لأنفسِهم

في قصّة (مُوسى) ﷺ، جاءَ قولُه -تعالى- على لسانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمِ﴾ [القصص:١٥ - ١٦] «مقصودُه: إنَّ هذا القَتلَ الصّادرَ منِّي من عملِ الشَّيطان، وهذا لا يُنافي ما عليه الشِّيعةُ من عصمة الأنبياء، فإنَّ الأنبياءَ ﷺ مَعصومونَ من المَعاصي، لا من تَركِ الأَولى، وبعبارةٍ أُخرى: إنَّهم مَعصومونَ من الذُّنوب، التي هي ذنوبٌ بالنِّسبة إلى غيرِهم، لا من الذُّنوب التي هي ذنوبٌ بالنِّسبة إليهم، فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبينَ، وتَوبةُ الأنبياءِ ﷺ من الالتفات إلى غيرِ اللّه، فلا غروَ أن يكونَ مُوسى ﷺ عَدَّ فعلَه، يَعني: تَعجيلَه في قتلِ مَن استحقَّ القَتلَ من دونِ مُلاحَظة المَفاسد، التي تترتَّبُ عليه، ذنبًا له، واستغفرَ منه، ونسبَ الظُّلمَ إلى نفسِه، معَ أنَّه كانَ مُستحِقًّا للقَتلِ»[2].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص ٢٦٤.

٢ - سلطان عليشاه گنابادى، بيان السعادة في مقامات العبادة، ج٣، ص ١٨٥.

٢. ظُلمُ الإنسانِ غَيرَه

تَقتضي طبيعةُ حياةِ الإنسانِ على هذهِ الأرضِ، نَوعَينِ من العلاقاتِ للإنسانِ بغَيرِه، يمُكِنُ أن يَتخلَّلَها الظُّلمُ:

أ. الظُّلمُ بينَ الإنسانِ ورَبّه

ثَمَّةَ سؤالٌ يَطرحُ نفسَه: أيَجوزُ إيقاعُ الظُّلمِ على اللهِ تعالى؟ يَبدو أنَّ الذّائقةَ اللُّغويّةَ العربيّةَ لا تَستسيغُ الإجابةَ بالإيجابِ عن ذلك، فمَفهومُ المَظلوميّةِ يَرتبطُ بمَفهومِ الاستضعافِ، والاستضعافُ ممّا لا يَصِحُّ إطلاقُه عليه سبحانَه البتّةَ، لكنْ بالعَودةِ إلى مَعاني الظُّلمِ في مُعجماتِ اللُّغةِ، وفي الاستعمالِ القرآنيِّ، ومنها النَّقصُ، والإضرارُ، نجدُ الأمرَ غيرَ ذلك؛ ففي تفسيرِ قولِه سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣]، قال الزَّمخشريُّ في سببِ وصفِ الشِّركِ باللهِ بالظُّلمِ العَظيم: «لأنَّ التَّسويةَ بينَ مَن لا نِعمةَ إلا هي مِنهُ، ومَن لا نِعمةَ منه البتّةَ، ولا يُتصوَّرُ أن تكونَ منهُ، ظلمٌ لا يَكتَنِهُ عِظَمَه»[١].

وقد قال (الطبرسيُّ): "أصلُ الظُّلمِ النُّقصانُ ومَنعُ الواجبِ، فمَن أشركَ باللهِ فقد منعَ ما وجبَ للهِ عليهِ من مَعرفةِ التَّوحيدِ فكانَ ظالمًا، وقيلَ: إنَّه ظلمَ نفسَه ظلمًا عظيمًا بأن أوبَقَها"[٢]، فنراهُ يُوردُ المَعنى الأوَّلَ، بأنَّ المُشركَ "قد منعَ ما وجبَ للهِ عليهِ من معرفةِ التَّوحيدِ فكانَ ظالماً"، والذي أفهمُه أنَّه ظالمٌ لِرَبِّه، في حين يَختصُّ المَعنى الثّاني المُمرَّضُ بـ(قيلَ)، بظُلمِ النَّفسِ.

والذي يَخلصُ إليهِ الباحثُ في هذا الأمرِ: لا مانعَ عقليًّا ولا نقليًّا من إيقاعِ الظُّلمِ في حقِّ اللهِ تعالى، بمَعنى نقصِ حقِّه سبحانَه، في الاعتقادِ والعَملِ، بل أغلبُ حالاتِ الظُّلمِ، إنَّما هي من هذا البابِ، فحَقُّه أن يُعبَدَ فلا يُشركَ به، وأن يُطاعَ فلا يُعصى، فمَن قصَّرَ في ذلك، فقد ظلمَ ربَّه بنُقصانِ حقِّهِ سبحانَه.

---

١ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٣، ص٤٩٤.

٢ - الفضل بن الحسين الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٨، ص ٤٩٤.

ب. ظُلمُ الإنسانِ غيرَه من المَخلوقات

أوَّلُ علاقةٍ تَشريعيّةٍ للإنسانِ بغَيرِه هي العلاقةُ بالأنبياءِ والرُّسلِ، وهم السُّفراءُ بينَ الله وخَلقه لأداء الأمانةِ الكُبرى، المَذكورةِ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا**﴾ [الأحزاب:٧٢]، ولعلَّ أفضلَ ما يُفسِّرُ هذه الأمانةَ، أنَّها خلافةُ اللهِ في الأرضِ، وهي خلافةٌ لا تَختصُّ بآدمَ عليه السلام وحدَه، وإنَّما تمتدُّ في ذريّتِه[1].

وعلى طريقِ هذه الخلافة، كان الاختلافُ بينَ النّاسِ، الذي اقتضى رَفعُهُ بعثَ النَّبيِّينَ، قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣].

وقد حثَّ اللهُ -تعالى- على اتِّباعِ أنبيائه ورُسله، وأثبتَ لهم القرآنُ الكريمُ أنَّهم المَهديُّونَ بهُدى الله، وهو الهُدى الحَقيقيِّ، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ [البقرة:١٢٠]، ولكنَّ الذي حصلَ في أرض الواقعِ ما تُقرِّرُه الآيةُ الكريمةُ: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾ [يس:٣٠]، فهي تُقرِّرُ ظُلمًا على نحوِ سُنَّةٍ مُطَّردةٍ عبرَّ عنها أسلوبُ القَصرِ المؤلَّفُ من أداةِ النَّفي (ما)، وأداةِ الاستثناءِ (إلا).

ولم يَقفِ الأمرُ عندَ الاستهزاءِ والسُّخريّةِ، وإنَّما تجاوزَه إلى صِراعٍ دامٍ لاستئصالِ وجودهم من على هذه الأرضِ، فكانَ الأخذُ الإلهيُّ للكافرينَ، قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [غافر:٥] والتدبُّرُ في قوله تعالى: ﴿**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**﴾، يَدلُّ على أنَّها سُنّةٌ مُطَّردةٌ في الأممِ البَشريّةِ كافّةً.

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص.ص ١١٥ - ١١٦.

ولم يقف الأمرُ عندَ الأنبياءِ والرُّسلِ، وإنَّما تجاوزَه إلى ظُلمِ أتباعِهم بالقَتلِ، ممَّن يُجسِّدونَ امتدادًا عقديًّا رساليًّا لهم، وقد تَوعَّدَهُم اللهُ تعالى بالعذابِ الأليمِ، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران:٢١-٢٢].

٣. الظُّلمُ المُطلَق

ويَشمل كلا القسمَينِ السّابقَين، فقد جاءَ في مواردَ كثيرةٍ مُطلقًا، ومنها قولُه تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام:٢١] وقال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه:١١١]. واحتملَ العلامةُ (الطباطبائيُّ) مَفهومَينِ للظُّلمِ في الآية، فقال: «أمّا قولُه: ﴿**وقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ فالمُرادُ بهم المُجرمونَ غيرُ المؤمنينَ، فلَهم الخَيبةُ بسُوءِ الجَزاءِ، لا كلُّ مَن حَملَ ظُلمًا ما، أي: ظُلمٌ كانَ من مُؤمنٍ أو كافرٍ، فإنَّ المؤمنَ لا يَخيبُ يَومئذٍ بالشَّفاعة. ولو كانَ المُرادُ العُمومَ، وأنَّ كلَّ مَن حملَ ظلمًا ما، فهو خائبٌ، فالمُرادُ بالخَيبةِ: الخَيبةُ من السَّعادةِ التي يُضادُّها ذلكَ الظُّلمُ، دونَ الخَيبةِ من السَّعادةِ مُطلقًا»[1].

ويَرى الباحثُ أنَّه بانتهاجِ مَنهجِ تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، بمُتابعةِ التَّعبيرِ نفسه، نجدُ أنَّ اللهَ -تعالى- قال: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه:١١١]، وقال: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس:١٠]، والضَّميرُ في ﴿**دَسَّاهَا**﴾ يَعودُ على النَّفسِ، وقد اشتركَ التَّعبيران في ﴿**وَقَدْ خَابَ**﴾، وهذا يَجعلُنا نُرجِّحُ أنَّ المُرادَ بـــ(حَمْلِ الظُّلمِ)، في الآيةِ الأولى، هو تَدسيةُ النَّفسِ في الآيةِ الثّانية، فإنَّ مَن دَسَّى نفسَه في الدُّنيا بالظُّلمِ، حتّى استقرَّ فيها، حملَه في الآخرةِ: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق:٩].

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص ٢١٣.

ثالثًا: الهلاكُ في القرآنِ الكريم

-١. الهَلاكُ والإهلاكُ المادِّيَّيْنِ

نَعني بالهلاك: الموتَ المادِّيَّ، الذي تَنتفي فيه مظاهرُ الحياة الماديّة، كالنُّموِّ والحَركة، قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء:١٧٦].

وهَلاكُ الأفرادِ تارةً يتحقَّقُ بفعلِ السُّنة الإلهيّة العامّة الجارية على الأرض، التي لا يُستثنى منها بشرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١]، وتارةً يتحقَّقُ بعقابٍ إلهيٍّ يَنزلُ في فردٍ من البَشر، لمَعصيةٍ اقترفَها، كما حصلَ لـ(قارونَ)، قال سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٧٦ -٨١].

أمّا على مستوى الأمَم، فالذي يَحصل هو الإهلاكُ الإلهيُّ للأمَم، لما اقترفوهُ من أعمال، ومن أمثلتِه قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩][١].

٢. الهَلاكُ المَعنويُّ

ونَعني به: الموتَ المَعنويَّ، الذي تَنتفي فيه مَظاهرُ الحياة المَعنويّة بالتَّمييز بينَ الحقِّ والباطلِ، فيَبلغُ الفردُ مرحلةً يكونُ فيها من مَصاديق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧]، قال (الطباطبائيُّ): «هؤلاءِ قومٌ ثَبتوا على الكفر، وتمكَّنَ الجحودُ من قلوبِهم، ويَدلُّ عليهِ وَصفُ حالِهم بمُساواةِ الإنذارِ وعدمِه فيهم، ولا يَبعد أن يكونَ المرادُ من

١ - وفي آيات أخرى منها: [محمد:١٣]، و[الحاقة:٤ ـ ٨].

هؤلاء الذينَ كفروا هم الكفّارُ من صَناديدِ قريشٍ، وكبراءِ مكّةَ، الذين عانَدوا ولَجُّوا في أمرِ الدِّينِ، ولم يألوا جهدًا في ذلك، ولم يُؤمنوا حتى أفناهُم اللهُ عن آخِرهم في بدرٍ وغيرِه، ويُؤيِّدُه أنَّ هذا التَّعبيرَ، وهو قوله: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، لا يمُكنُ استطرادُه في حقِّ جميعِ الكفّارِ، وإلا انسدَّ بابُ الهداية، والقرآنُ يُنادي على خِلافه، وأيضًا هذا التَّعبيرُ إنَّما وقعَ في سورةِ يس (وهي مكّيّة)، وفي هذه السُّورةِ، وهي سورةُ البقرةِ، أوَّلُ سورةٍ نَزلَت في المَدينةِ، نزلَت ولم تقعْ غزوةُ بدرٍ بعدُ... يُشعِرُ تَغييرُ السِّياق (حيثُ نسبَ الخَتمَ إلى نفسِه تعالى، والغِشاوةَ إليهم أنفسِهم)، بأنَّ فيهِم حِجابًا دونَ الحقِّ في أنفسِهم، وحِجابًا من الله تعالى عُقيبَ كفرِهِم وفُسوقِهِم، فأعمالُهم مُتوسِّطةٌ بينَ حِجابَينِ: مِن ذاتِهم، ومنَ اللهِ تعالى»[1].

والسِّياقُ القرآنيُّ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ* أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٧ - ١٩]، يَرسُمُ صُورتيَ الحياةِ المَعنويّةِ، والهَلاكِ المَعنويِّ، وإنْ لم يُسمِّها بهذَينِ الاسمَينِ، فيقول (الطباطبائيُّ) في تفسيرِها مُلمِّحًا للمَسيرتَينِ التَّكامُليّةِ والانحطاطيّةِ للإنسانِ في هذِه الدُّنيا، وهما مِن أجلَى مظاهرِ الحياةِ المَعنويّةِ، والهَلاكِ المَعنويِّ:

«والمُرادُ بالقولِ، بقرينةِ ما ذُكر من الاتِّباعِ: ما لَه نوعُ ارتباطٍ ومَساسٍ بالعَملِ، فأحسنُ القولِ أرشَدُه في إصابةِ الحقِّ، وأنصَحُه للإنسان، والإنسانُ إذا كانَ ممَّن يُحبُّ الحُسنَ، ويَنجذبُ إلى الجمالِ، كانَ كلَّما زادَ الحُسنُ، زادَ انجذابًا، فإذا وَجدَ قَبيحًا وحَسنًا، مالَ إلى الحَسَنِ، وإذا وجدَ حسَنًا وأحسَنَ، قصدَ ما هو أحسَنُ، وأمّا لو لم يمَلْ إلى الأحسَنِ، وانجمدَ على الحَسَنِ، كشفَ ذلكَ عن أنَّه لا يَنجذبُ إليهِ من حيثُ حُسنه، وإلا زادَ الانجذابُ بزيادةِ الحُسنِ. فتوصيفُهُم باتِّباعِ أحسنِ القَولِ مَعناهُ أنَّهم مَطبوعونَ على طلبِ الحقِّ، وإرادةِ الرّشدِ، وإصابةِ الواقعِ؛ فكلَّما دارَ الأمرُ بينَ الحقِّ والباطلِ، والرّشدِ والغيِّ، اتَّبعوا الحقَّ والرّشدَ، وتَركوا الباطلَ والغيَّ. وكلَّما دارَ الأمرُ بينَ الحقِّ والأحَقِّ، والرّشدِ وما هو أكثرُ رُشدًا، أخذوا بالأحقِّ الأرشَدِ.

فالحقُّ والرّشدُ هو مَطلوبُهم، ولذلك يَستمِعونَ القولَ، ولا يَردُّونَ قولاً بمُجرَّدِ ما قرعَ سمعَهم

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٥٢.

اتِّباعًا لهوى أنفسِهم من غيرِ أن يَتدبَّروا فيهِ ويَفقهوهُ.... وقولُه: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الصِّفةَ هي الهدايةُ الإلهيّةُ، وهذه الهدايةُ، أعني: طلبَ الحقِّ، والتَّهيُّؤَ التّامَّ لاتِّباعِ الحقِّ أينَما وُجِدَ، هي الهدايةُ الإجماليّةُ، وإليها تَنتهي كلُّ هدايةٍ تَفصيليّةٍ إلى المعارفِ الإلهيّةِ...

قولُه تعالى: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾ [الزمر:١٩]. ثبوتُ كلمة العَذاب: وجوبُ دخولِ النّار بالكُفر، بقوله عندَ إهباطِ آدمَ إلى الأرض: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٣٩][١]. ونصَّ على هذا الهلاكِ سبحانَه في آياتٍ كريمةٍ أُخرى[٢]. وتضمَّنَت آياتٌ أخرى مفهومَ هذا الهلاكِ، وإنْ لم تنصَّ عليه[٣]، وتضمَّنَت آياتٌ أُخرى مفهومَ الإهلاكِ المَعنويِّ، من دون النصِّ عليه، عقابًا من الله تعالى لمَن يَستحقُّه،[٤] هذا على مُستوى الفردِ، أو مجموعةٍ من الأفراد.

أمّا على مستوى الأمّة، فحينَ تَصِلُ الأمّةُ إلى مرحلةِ نُزولِ عذابِ الاستئصال، الذي لا يُبقي ولا يَذَرُ؛ ونُزولِه ممَّن هو أرحَمُ الرّاحمينَ، يَعني انعدامَ احتمالِ صَلاحِهم كليًّا، قال تعالى مُخاطبًا رسولَه نوحًا عليه السلام بأسلوبٍ شديدِ اللَّهجة: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾ [المؤمنون:٢٧]. و»النَّهيُ عن مخاطبته تعالى كنايةٌ عن النَّهي الشَّديد عن الشَّفاعة لَهم، بدليلِ تَعليقِ المُخاطَبةِ بـ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾، وتَعليلِ النَّهي بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ فكأنَّهُ قيل: أنهاكَ عن أصلِ تكليمي فيهم، فضلاً عن أن تَشفعَ لهم، فقد شملَهم غَضبي شمولاً لا يَدفعُه دافعٌ»[٥].

ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص. ص ٢٥٠-٢٥١.
٢ - منها: سورة [الأنعام: ٢٥ -٢٧]، و[التوبة: ٤٢].
٣ - منها سورة [يونس: ٩٦ - ٩٧].
٤ - منها سورة [يونس: ٨٩].
٥ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥ ، ص ٣٠.

وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٥].

رابعًا: سُنَنُ هلاكِ الأفرادِ وهَلاكِ الأمَمِ في القرآنِ الكريم

ذكرَ السيِّدُ (محمد باقر الصَّدر)، كيفيّةَ تَعبيرِ القرآنِ الكريم عن السُّننِ التّاريخيّةِ خاصّةً، بأنَّه على ثلاثةِ صيغٍ[1]:

- **الشَّكلُ الأوَّلُ:** صيغة القضيّةِ الشَّرطيّة، التي تَربطُ ما بينَ حادثتَينِ اجتماعيّتَينِ أو تاريخيّتَينِ، فهي تتحدَّثُ عن الحادثة الثّانية، بأنَّه مَتى ما وُجدت الحادثةُ الأولى، وُجدت الحادثةُ الثّانية، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [الرعد:١١]، فمَتى ما وُجد ذاكَ التَّغييرُ في أنفسِ القَومِ، وُجد هذا التَّغييرُ في كيانِهم، والشَّرطُ: هو فعلُ الإنسانِ وإرادتُه.
- **الشَّكلُ الثّاني:** القضيّةُ الفعليّةُ النّاجزةُ الوجوديّةُ المُحقَّقةُ، التي تَنظر إلى الزَّمانِ الآتي، وتُخبرُ عن وقوعِ هذه الحادثةِ على أيِّ حالٍ.
- **الشَّكلُ الثّالثُ:** السُّنةُ التّاريخيّةُ المَصوغةُ على صورة اتِّجاه طبيعيٍّ في حركة التّاريخ، لا على صورة قانونٍ صارمٍ حَدِّيٍّ، قال سبحانه وتعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم: ٣٠]. هنا الدِّينُ ليسَ تَشريعًا فقط، وإنَّما فطرةٌ فطرَ اللهُ عليها النّاسَ، ولا تَبديلَ لخَلقِ اللّه. يَعني: كما أنَّكَ لا يمُكنُكَ أن تَنتزعَ من الإنسانِ أيَّ جزءٍ من أجزائه التي تُقوِّمُه، كذلك لا يمُكنُكَ أن تَنزعَ من الإنسانِ دينَه. فالدِّينُ سُنّةٌ لهذا الإنسان، لكنَّها ليسَت سنّةً صارمةً كقانونِ الغَليان، فهي سنّةٌ تَقبلُ التَّحدِّي على الشَّوطِ القَصير، عن طريق الإلحاد، وغَمضِ العَينِ عن هذه الحَقيقةِ الكُبرى؛ لأنَّ العِقابَ سوفَ يَنزلُ بالمُتحدِّي، من سُننِ التّاريخِ نفسِها:

١ - يُنظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص. ص ١٠٤- ١١٨.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وبعدَ أن اتَّضَحَ مفهومُ الهَلاكِ والإهلاكِ إجمالاً، وكيفيّةُ تَعبيرِ القرآنِ الكريمِ عن السُّننِ، نَشرعُ في الوقوفِ على سُنَنِه في القرآن الكريم.

١. سُنَنُ هَلاكِ الأفراد

من خلال استقراءِ القرآنِ الكريم يُمكِنُنا تَشخيصُ السُّنَنِ الآتيةِ في هَلاكِ الأفرادِ في الدُّنيا والآخِرة:

السُّنةُ الأولى: الهَلاكُ بالإعراضِ عن ذكرِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، هذه السُّنةُ تُقابِلُها سُنّةُ اتِّباعِ الهُدى الإلهيِّ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

السُّنةُ الثّانيةُ: الهَلاكُ بتَكذيبِ الأنبياءِ والرُّسلِ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل:١٤-١٦]، هذا المَصيرُ القاتمُ، يُقابلُه مَصيرٌ مُشرقٌ؛ إذ يقولُ تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:١٧-٢١].

السُّنةُ الثّالثةُ: الهَلاكُ بالإغراقِ بمُقارَفةِ السَّيِّئات، قال تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].[1]

السُّنةُ الرّابعةُ: الهَلاكُ باتِّباعِ الهَوى، الذي يُفضي إلى نسيانِ يومِ الحساب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

١ - ينظر: سورة [العنكبوت: ٥٣ ــ ٥٥].

السُّنةُ الخامسةُ: الهَلاكُ باجتماعِ الكفرِ والظُّلم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا**﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

٢. سُننُ هَلاكِ القُرى والأمَم

السُّنّةُ الأولى: إنَّما يكونُ الإهلاكُ بسببِ الظُّلم، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف:٥٩][١]

وقد نفَتْ آيةٌ أخرى أن يَحصل الإهلاكُ معَ اتِّصاف أهلِ القُرى بالإصلاحِ، وأداءِ واجبهم في النَّهي عن الفَساد، فقال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود:١١٦-١١٧][٢].

وفي تَركيزٍ على دَورِ الاختيارِ الإنسانيِّ في السُّننِ التّاريخيّة، قال السيِّدُ (محمد باقر الصَّدر): "يَكفي الآنَ أن نَستمعَ إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]...﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا**﴾ [الجن: ١٦]...﴿وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩]، انظُروا كيفَ أنَّ السُّننَ التّاريخيّةَ لا تَجري من فوقِ رأسِ الإنسانِ، بل تَجري من تحتِ يدِه»[٣].

وفي تركيزٍ على أثرِ الظُّلمِ خاصّةً، في هلاكِ القُرى والأمَم، وأنَّ ذلكَ سُنّةٌ إلهيّةٌ، قال العلامةُ (الطباطبائي): "والمَهلِكُ بكَسرِ اللاّمِ اسمُ زمانٍ... وهي مَسوقةٌ لبيانِ أنَّ تأخيرَ مَهلكِهم وتأجيلَه ليسَ ببِدْعٍ منّا، بل السُّنّة الإلهيّةُ في الأمَمِ الماضينَ، الذينَ أهلكَهُم اللهُ لَما ظَلموا، كانَت جاريةً على ذلك، فكانَ اللهُ يُهلِكُهم، ويَجعلُ لَمَهلِكِهم مَوعدًا"[٤].

١ - وكذلك في سورة: [الحج: ٤٥]، و سورة [النمل: ٥٢]، و سورة [الإسراء: ٥٨].
٢ - وكذلك في سورة [القصص: ٥٩]، وسورة [العنكبوت:٣١].
٣ - محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص: ٨٤.
٤ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص. ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

السُّنّةُ الثّانيةُ: لكلِّ أمّة أجلٌ، لا يَملكُ غيرُ الله -تعالى- تَحديدَه، هذا الأجلُ لا مَحيصَ لها عنهُ، قال سبحانه: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [يونس:٤٨-٤٩][1].

ووقفَ (ناصر مكارم الشِّيرازيُّ) عندَ السُّنّةِ الإلهيّة، التي تتضمَّنُها الآيةُ الكريمةُ، فقال: "فقد سرَت سُنّةُ الباري جلَّ شأنُه بأنْ يُعطِيَ المُدّةَ الكافيةَ لرُجوعِ المُضَلَّلينَ إلى بارئهم، من خلالِ ابتلائهم بالشَّدائد الصَّعبة تارةً، وبفيوضاتِ رحمةِ الرَّخاءِ تارةً أُخرى، فمَن لا تَنفعُه البشارةُ يأتيه الإنذارُ وهكذا، كلُّ ذلكَ إتمامًا للحُجّةِ عليهم. صحيحٌ أنَّ المَصلحةَ المُوجبةَ للتَّربيةِ الرَّبانية، تَقتضي (بعلم ربِّ الأربابِ) أن يمُهِلَ، ولكنَّه سبحانَه لا يُهمِلُ، وعاجلاً أم آجلاً، سيَنالُ كلٌّ نَصيبَه بما كسبَت يَداهُ[2].

السُّنّةُ الثّالثةُ: لكلِّ أمّة رسولٌ مُحدَّدٌ، يُقضى بينَه وبينَ أمّته في أجلٍ مُحدَّد، قال -تعالى-: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ [يونس:٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٤]، «وَجهُ الاقتصارِ على وصف النَّذيرِ هنا دونَ الجَمعِ بينَه وبينَ وصفِ البَشيرِ هو مُراعاةُ العُمومِ الذي في قوله: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**﴾ فإنَّ مِن الأمَم مَن لم تَحصل لها بشارةٌ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحدٌ»[3].

وجاءَ التَّعبيرُ بالنَّكرةِ في (أمّة، ونَذير) ليُفيدَ عمومَ السُّنّةِ الإلهيّة، التي عَلَّلَها -تعالى- بقوله: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ (النساء:١٦٥)

ولا يأتي الإهلاكُ إلا بعدَ إرسالِ الرُّسلِ، لئلاّ يكونَ ظُلمًا، قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ**

١ - وكذلك في سورة [الحجر: ٥]، وسورة [المؤمنون: ٤٣].
٢ - ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص. ص ١٢ - ١٣.
٣ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢، ص ١٥٢.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٠-١٣١][1].

وقرَّرَت آيةٌ أُخرى أنَّ سنّةَ العَذابِ الدُّنيويِّ أنَّه يَنزِلُ بعدَ تكذيبِ القُرى، الذي يُقابِلُ الإيمانَ والتَّقوى، ولولا ذلك لفتحَ اللهُ عليهم نِعَمًا دُنيويّةً وصفَها بأنَّها بركاتٌ من السَّماءِ والأَرضِ، فقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾** [الأعراف: ٩٦][2].

السُّنّة الرّابعةُ: للإهلاكِ كتابٌ، وصفَه القرآنُ الكريمُ بأنَّه مَعلومٌ، قال تعالى: **﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾** [الحجر: ٣ــ ٤]. «المَعنى: دَعْهُم فإنَّهم لا يُسلمونَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وإنَّما يَودُّونَ الإسلامَ بعدَ حلولِ أجلِهم، ونُزولِ الهَلاكِ بهم، والنّاسُ لَيسوا بذَوي خيرَةٍ في ذلك، بل لكلِّ أمّةٍ كتابٌ مَعلومٌ عندَ الله، مَكتوبٌ فيه أجلُهم، لا يَقدرونَ أن يَستقدموهُ ولا يَستأخروهُ ساعةً. وفي الآيتَينِ دلالةٌ على أنَّ الأمّةَ من الإنسانِ لها كتابٌ، كما أنَّ للفردِ منه كتابًا، قال تعالى: **﴿وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾** [الإسراء:١٣][3].

السُّنّةُ الخامسةُ: يأتي الإهلاكُ ثالثًا لمَرحلتَينِ تَسبقانه، قال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾** [الإسراء:١٦]، ذكرَ الزَّمخشريُّ أنَّ الأمرَ في الآيةِ مَجازٌ، فاللهُ لا يأمرُ بالفسقِ حَقيقةً، ووَجهُ المَجازِ أنَّه صبَّ عليهم النِّعمةَ صَبًّا، فجَعلوها ذَريعةً إلى المَعاصي، فكأنَّهم مأمورونَ بذلكَ لتَسبُّبِ إيلاءِ النِّعمةِ فيه، وإنَّما خَوَّلَهم إيّاها ليَشكروا، فآثَروا الفُسوقَ، فلمّا فَسقوا حقَّ عليهم القولُ، وهو كلمةُ العذابِ، فدَمَّرَهم. وردَّ احتمالَ المَعنى: أمَرْناهُم بالطّاعةِ ففَسقوا؟[4].

١ - وكذلك في سورة: [الشعراء: ١٣٩]، و [الشعراء: ٢٠٨-ـ٢٠٩]، و[القصص: ٥٩].
٢ - وكذلك في سورة: [الشعراء: ١٨٩]، و [المؤمنون: ٣٩- ٤٣].
٣ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص. ص ٩٧ - ٩٨.
٤ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٢، ص ٦٥٤.

وجوَّزَ (العلامةُ الطباطبائيُّ) توجيهَ (الزَّمخشريّ)، ولكنَّه رجَّحَ ظهورَ معنًى آخرَ ردَّهُ (الزَّمخشريُّ)، هو أن "يكون الأمرُ في الآيةِ مُستعمَلاً استعمالَ اللاّزمِ، والمَعنى تَوجَّهَ أمرُنا إلى مُترفيها، ففَسقوا فيها عنه"[1].

والذي يَبدو للباحث أرجحيّةُ ما وصفَه (العلامةُ الطباطبائيُّ) بأنَّه الأظهَرُ، فمُتعلَّق الفعلِ (أمرَ)، في الآيةِ الكريمةِ، يُفسِّرُه قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى**﴾ [النحل: ٩٠]، فقد أمرَهُم اللهُ بالعَدلِ والإحسانِ، فلم يمتثِلُوا أمرَه، وذلك هو الفُسوق.

السُّنّةُ السّادسةُ: يَعترفُ المُهلَكونَ بظُلمِهم بعدَ نزولِ العَذابِ، حينَ لا يَنفعُ الاعترافُ، قال تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ**﴾ [الأنبياء:١١-١٥][2]، ويَبدو أنَّ هذا تابعٌ لسُنّةٍ إلهيّةٍ ثابتةٍ هي أنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ إنَّما يكونُ عن وَعيٍ وحريّةٍ واختيارٍ، وإلا لا قيمةَ له عندَ رؤيةِ البَلاءِ.

وفي آياتٍ مُتواليةٍ، جمعَ القرآنُ الكريم مجموعةً من السُّننِ التي ذكرناها، فقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ* فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر:٨٢ - ٨٥].

السُّنّةُ السّابعةُ: لا يُستثنى من الهَلاكِ بالاستئصالِ أحدٌ ممَّن استوجبَه، ولا يَشمل الهَلاكُ بالاستئصالِ الشّاملِ مَن لا يَستحقُّه من المُجتمعِ، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾ [هود:٥٨][3].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص. ص: ٦١ - ٦٢.

٢ - وكذلك في سورة: [غافر: ٨٢ - ٨٥].

٣ - ينظر: نظائرها في سورة: [هود:٦٦]، و[هود:٩٤]، و[المؤمنون:٢٧].

الخاتمة

بعدَ هذهِ الجَولةِ السَّريعةِ الشّاملةِ، في رحابِ القرآن الكريم، يمُكنُ إيجازُ أبرَزِ ما تَوصَّلنا إليه من نتائجَ بالآتي:

- لا هلاكَ إطلاقًا إلا بظُلمٍ من الهالكِ.
- لا هَلاكَ إلا بعدَ نفادِ كلِّ وسائلِ الهِدايةِ، والإمهالِ، حتى يَسدَّ الهالكونَ عن أنفسِهم كلَّ احتمالاتِ الصَّلاحِ.
- يَجري الهَلاكُ على وفقِ سُننٍ دَقيقةٍ يمَتنعُ معَها ظلمُ أحدٍ من الهالكينَ.
- جعلَ اللهُ -تعالى- هلاكَ السّابقِ عِبرةً للاّحقِ، فيكونُ ذلكَ من وسائلِ هِدايةِ الخَلقِ وإصلاحِهم.

المصادر والمراجع

- إياد محمد علي الأرناؤوطي، المواهب(معجم لأغلب كلمات القرآن الكريم مستخلص من تفسير مواهب الرحمن للإمام السبزواري)، مركز كربلاء للدراسات والبحوث، ط٢- ٢٠٢٣م.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط٤- ١٤٢٩هـ.
- سلطان محمد الجنابذي (سلطان علي شاه)، بيان السعادة في مقامات العبادة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط٢- ١٤٠٨هـ.
- الشريف الرضي، نهج البلاغة (خطب الإمام علي بن أبي طالب)، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، ط١- ١٩٦٧م.
- عباس الموسوي، شرح نهج البلاغة، دار الرّسول الأكرم ودار المحجة البيضاء، بيروت، ط١- ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مكتب سماحة آية الله العظمى السبزوارى، ط٢- ١٤٠٩هـ.
- الفضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ناصر خسروان- طهران، ط٣- ١٣٧٢ هـ. ش.
- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات- بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-

بيروت، ط٢- ١٣٩٠هـ.

- محمد يعقوب الكليني، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية – طهران، ط٤- ١٣٦٢ هـ. ش.
- محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣- ١٤٠٧هـ.
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - ايران - قم، ط١- ١٤٢١هـ.